الدافق أعنف ارتجاج، وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فإذا هي الساعة الخامسة إلا عشر دقائق! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فإذا هي الساعة الخامسة والدقيقة الثانية ... والويل له إذا تجاوزت هذا الحد ولو إلى دقائق معدودات؛ لأن الدقائق المعدودات لا بد أن تُترجَم في لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التي لا يجمعها الحصر والإحصاء، وأنه ليطيل النظر إلى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهلُّ من مطلع الطريق إلا كما يرجع إلى النائم صحوه، أو كما يرجع إلى المذهول رشاده، وتتقدم وهي تتهادى في خطواتها التي كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناقٍ مشوقٍ، وينفتح الباب وينقسم العالم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما في الذهن ولا في الخيال: قسمٌ فيه كل شيء، وقسمٌ ليس فيه من شيء ... أو قسمٌ موجودٌ، وقسمٌ لا وجود له، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهَّاج، والدنيا هي القسم المهجور الذي تتسع قاراته وبحاره ومَن فيها وما فيها من السكان لأوسع من مكانها في خرائط الأطفال.

والذي يحدث في الشتاء قد كان يحدث مثله في الصيف أيام السموم والحرور، فلا تأخير ولا اعتذار، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار، حتى يحين الموعد ويستقر القرار.

في تلك الأيام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج: إذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمنٍ طويلٍ، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهربٍ سحيقٍ، وإذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذي استوفى نصيبه من العقار وبقي له نصيبه من النشوة والتذكار، ونصيبه من الشوق في الغد إلى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء ووداع، وألف انتقال من حالٍ إلى حال، وألف سَكِينَة وألف ابتدار.

تلك أيام!

ثم جاءت بعدها أيام.

وشتَّان أيام وأيام.

نعم شَتَّان حقيقةً وتمثيل ... وأي تمثيل؟! تمثيل اللاعب الذي يُسَاق إلى دوره سوقًا لأنه يخشى الفشل لا لأنه يأمل النجاح.

واستمرت المواعيد، واستمر اللقاء، واستمرت السآمة، واستمر الشقاق، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل إلى أن يعود.